

الأدب في نهضةنا الحديثة

بقلم محمد هاشم عطية

الأستاذ بدار العلوم

٢

لم نكن متحاملين حين أشرنا في مقالنا السابق الى بعض ما رأيناه من وجوه العيب فيما استشهدنا به من أشعار الطبقة الحديثة من شعرائنا المعاصرين ، ولكن هذا النقد ، على حظه من الصواب ، ومع ما لزمناه في إيرادنا من التلطف ، قد أثار علينا حفيظة كاتب في جريدة الجهاد الغراء يدافع عن البيت :

بك خف الجناح يأبها الطير وما كنت بالجناح تخف
زعم أننا لم نفهمه ، وعجب حتى أطال العجب أن كيف يدرس الأدب للناس من لا يفهم هذا الكلام ، ونصح لنا أن نضم إليه قسيما له هو قوله :
لطف روح أعار جنيك ريشا فمن الروح لا من الريش لطف
رجاء أن يعين الله ونصل الى فهم المعنى المراد . ونحن نحب أن نظل في موقفنا من مثل هذه الملاحظة بمنزلة المعرض التارك ، لأنه ليس في وسعنا رد المتسرع ، ولا إعتاب المتجنى ؛ ولأنه لم يبق الى اليوم بين أهل العلم من لا يزال يضع اللجاجة مكان الحجة ، والاسترسال في موضع الثبوت ؛ ولأننا نعلم أن الكلام إنما يشرف حسبه ويعز جانبه إذا كان سهلا ممتعا ، وقريبا مكشوبا ؛ وأنه إنما يكون خبيثا نكدًا إذا كان مكدودا ملتويا ، وعويضا مقلوبا ؛ فلم يبق لنا مع هذا الكاتب موضع ، لأننا في اعتراضنا لنقد البيت كنا خيرا منه إذ نصب نفسه المدافع عنه فهجته وعابه بما لم يباغ اليه كلامنا . وهو لا يدري بما هجم عليه ، لأنه

في الظاهر من حاله، لم يحتك بالآداب بعد، ولم يتمرس بمثل هذه المحاولة في الكتابة. على أننا لا ندع هذا البيت الثاني من غير أن نشير إلى ما فيه من تابع الحروف المتقاربة الذي أدى إلى قربه من السهاجة في تأليف كلماته، ويتبادر إلينا أن شطره الآخر قد لا يستقيم المبتأى من غير احتفال وحذر، لاستباق كلمتي الريش والروح إلى النطق فتقع إحداهما مكان الأخرى.

ولعل الذين يجعلون تنافر الكلمات من عيوب المنطق يعيدون النظر فيما يكتنف هذا البيت من الرأىات والشينات، فيجعلون منه شاهدا حديثا يكون قريبا من قولهم:

« في رفع عرش الشرع مثلك يشرع »

ثم ماذا يبقى منه في اليد بعد ذلك؟! إنه شيء متعالم يقره الناس ولا يتنازعون عليه، ويفهمونه على طبيعته من غير أن تنقلب الحال. أو تنعكس طبائع الأمور. فهم يدركون أن الطائر يهيم ويلهم فيطير، كما يعزم الانسان ويفكر ويريد فيسير ويعمل، من غير أن يتعالوا إلى هذا النسق الغريب من الفلسفة في القول بأن اللطافة والحفة ما نشأتا في الطير من الريش، ولأن الطائر يخلق بحوصلته في الهواء، أو يصف بظهره في الجو، أو يهوى برأسه إلى الأرض. ولو كان الأمر يستقيم على هذا الكانت الهبة في البيت باطلة، وليكانت إغارة الروح للجنين ما أغارت من الريش لا قيمة لها. ولو كان هذا البيت برمته اختراعا في الآداب، أو مثلا من تنقيح الفكر - وهو هكذا نافر من مألوف العادة، معاند للعرف المستقر من طبيعة الوجود - لكان مع ذلك جالبا للؤونة، ومستحقا للاستكراه. وهاهنا آخر، وهو صاحب النبوع، زعم أننا كنا نتناوله « بروح

فقهيّة ، وهى أقصى ما بلغ من جهده فى مراجعتنا . ونحن مع تقديرنا
لأدبه فى الكتابة ، نحب أن ننبه ثانية إلى غرضنا من استعمال « بينا » فى الحشو
أنها لا تقع إلا صدرا بالميم أو من غيرها . أما قوله : « بروح فقهيّة » فلم
ندر ما يريد بهذه الكلمة ، ولعله يقصد هذه الملازمة والتبع فى استقصاء
الاشياء ، والتلبث فى أعقاب الأمور : أو يريد ذلك التقدير الساذج من
جماعة العوام لبعض الفقهاء القراء فيما يصفونهم به من الزماتة
فى اصطنائهم لمظاهر التوقر المتكلف ، مع تشديقهم واستنكاكهم ، وجهامة
سمتهم . والله يعلم ما نحن من واحدة من هاتين فى شىء ، وأتأ ما زلنا
كارهين لغشاة التبع ، خائفين من فتنة العجب ، وإنما هى نخيلة نفس
أفضينا بها ، ونصح جيب نشرناه ، فإن نصب فذلك مانهضنا له ، وإن
نخطى فمرحبا بمن يردنا من هوان الباطل إلى عز الحق ، ومن ظلمة
الشك إلى وضح اليقين .

والآن نرجع إلى ما وعدنا به من القول فى النثر الأدبى ، والإشارة
إلى آثار الكتّاب وطبقات المؤلفين من أهل العصر . نقول : إن الكتابة
الإنشائية قد بلغت الآن من حسن الترسّل ، ولطف العبارة ، وبلاغة
المنطق ، والتشبه بالأوائل ، إلى ما يغرى بالقول بأن لبعض كتابنا من
جمال النسق وحلاوة البيان ما يكاد يشبه كلام البلغاء ورؤساء الدواوين
فى العصور الذهبية للكتابة العربية ، ويرجع أكثر الفضل فى ذلك
— على مبلغ رأينا — إلى دراسات وأسباب ينبغى أن يجعل من أعظمها
شأناً ظهور كتاب الأغانى للإمام أبى الفرج منذ ثلاثين سنة بفضل
أبى محمد الساسى المغربى . ويومئذ أقبل أشياخ الرواق العباسى وطلاب
دار العلوم ، وكثير من طلاب الحقوق والمعلمين وطبقات من القضاة
والمتأدين وأصحاب الكتب يقرءونه ويتعجبون منه ويتطرفون
بفصوله ، لخلاصة عنوانه ، وقديم شهرته . وفى ذلك الوقت كانت مقدمة

ابن خلدون وكتاب كيلة ودمنة عماد المدرسة القديمة في رياضة الطلاب على العادة الصالحة ، وتنشئتهم بامثال القدوة الحسنة . وتتابع الوراقون في إحياء الأسفار الدفينة من ذخائر العربية ، فظهر العقد والكامل ومعظم كتب الجاحظ ، وترجم كتاب الترية الاستقلالية ، وسر تقدم الانجائز ؛ وعينت المعاهد العلمية بدراسة هذه الكتب عناية فائقة غاية الوصف ، حتى لقد كان بعض القدامى من الأساتذة - رحمهم الله - يحملون طبقة من طلابهم على الاستظهار بكل سبيل لاستخراج ما في كتاب أبي الفرج من الكلمات والأساليب والرسائل والمقطوعات والأحاديث المطولة والقصائد المختارة . وكان كتاب الترية الاستقلالية - وهو مثل ممتع من الآداب الأجنبية في استقامته وامتناع أسلوبه العربي - مزاجاً من ثقافة البلاغتين ، وسع المتأدبين من طلاب المعلمين في المدرستين ، وأقبل الناس ، من أخريات القرن الفائت ، يتفلتون من مؤنة السجع ، ويفرون من عقالات التكلف إلى محاكاة هذه الأساليب ، التي كان من أكثرها ذهاباً إلى الغاية أسلوب ابن خلدون ؛ فاشتد إليه الناس وغرهم الشغف بما فيه من الآراء الحديثة ، والأوضاع الاجتماعية ، حتى تعلق بالأسنة ، وتأثرت به الكتابة إلى مدى أبقي في لغة كثير من خاصة كتابنا أخطاء^(١) قلبية وقعت في هذا الأسلوب لم ينتبه إليها معظمهم إلى الآن . ثم جعل التعليم في مدرسة الحقوق بالعربية ، واستفحل أمر المحاماة ، وصارت حاجتها إلى خلاصة المنطق وفصاحة اللسان كحاجتها إلى أوصاف الدفاع ومبادئ القانون . وكان نادي المدارس العالية سامراً راقياً يث الأفكار الجديدة ، وينشر الثقافات المدنية . وكان النادي

(١) كادخال باء التعدية في فعل استبدل على غير المتروك . وكوضع الواو في خبر لا بد فيقول : لا بد وأن . وكعدية ، تعود ، بعلى . وكجعل الخبر استثناء ، فيقول : فانه وإن كان كذا ألا أنه . أو لكنه .

القديم لدار العلوم منبراً آخر تهتز أعواده بأصوات الخطباء والمحاضرين من جهابذة الأدب القديم . وثارت يومئذ عجاجة النازعين إلى التعريب ، واستحر الجدل بين أشياخ العربية وأعلامها ، وكان حفي والخضري والمهدى ومفتاح وشاويش والاسكندري ، وكان معهم من علماء هذه الطبقة أمثال فتحى زغلول واحمد زكى وغيرهم .

وعمرت مجالس الناس بأهل الأدب ، وتعاطاه كثير من طبقات المثقفين بأجناس العلوم المدنية ، وكان للويلحي والبابلي وحافظ والبشرى والخليل والمنفلوطى وتلاميذهم مجالس لدراسة الكتب والأشعار ، والتملح بالنوادر فى دورهم ودور أخوانهم والمتظرفين بهم من أعياء الناس وأوساطهم ، وما من عشير لحافظ - رحمه الله - إلا وهو مدين له بكثير مما عرف من طرق الاختيار للكلام ، وتحصيل الآداب الموصوفة لشعراء العصور ، والاهتداء الى الأوابد من مقامات البلغاء ومجالس المتأدبين . وكانت الصحف قد بدأت مع هذه المدارس ، والى أولئك المصلحين تنهض بجانب من الثقافة ، وإن لم يكن الناس ذلك الوقت ينظرون إليها فى الجملة بهذا الاعتبار . وإلى هنا كانت الحياة الأدبية تسير سيراً هادئاً فى قيادة صالحة متوجهة إلى غايتها من الكمال الممكن ، للأخذ يمين الاجتماع إلى مواطن الرشاد والخير ، حتى نشأت الثورة ، واختلفت الأحزاب ، وانحاز كل فريق من الكتاب إلى حزبه ، ووقف بعضهم لبعض فى المحاماة عن الأغراض ، وللرماء بالزور ، والمهاجاة بالمنكر من الكلام . وفشت الصحف الأسبوعية فى مجامع الناس وبين كل الطبقات ؛ وما هى إلا هنيهة وإذا هى جاهدة فى التفتيش عن عيوب المستورين ، والبث لهنوات الناس ، والتشهير بمثالب الغافلين من أهل العمل الصالح ، حتى رهبها الناس وهابوها ، وتملقوا كتبها بالالطاف والهبات . وقد كان من أكبر جرائرك عند هؤلاء

يومئذ أن تكون من المياسير، وأن يكون مكانك من الجاه والغنى يدعوك إلى امتطاء مركب سرى، والقعود في مشرب راق، ثم يمر بك بعضهم فلا تبادره بالوثبة من مقعدك، والعناق بكلتا يديك، والترحيب بما في طاقتك من اقتداح الأقداح، واهتبال الأموال، انك إذا وفي اليوم الثاني على الفور ظنين في حسبك، مطعون في أيك وأملك. حتى تهافت الناس، وتراجعت الأخلاق، وعادت صفحة الأدب—بعد أن كانت سمحة صافية—شوهاء ملوثة بمزاج بشع من هذه المجاجات المقدورة. وعملت الجامعة الجديدة على الولاية للأدب بالمكابرة والغلبة، وكانت دراستها الأدبية الحديثة، وهى فى الجملة خلاصة آراء ومباحث لجماعة من الكهان المتعصبين على المشاركة من الافرنج، تنطوى فى كثير من فصولها على التنفير من الأدب القديم، والتشويه لجمال المدرسة القديمة، بما أعان على قلة الحياء منه ربح الدولة القائمة. والاتصار لتاحية معلومة من السياسة، وشاعت النعرة للاداب الأجنبية، وزين للناس أعمالهم وأنفسهم، ومدحوا بالتجديد، ووصفوا بالثقافة الأوروبية، وغير المشايخ بالجمود والارتباط بمعالق القديم، وسرت هذه العدوى إلى العادات القديمة والوراثات الصالحة، فخلت المسارح والطرق والميادين بالأبناء يزحمون الآباء بالأركان، ويسايرونهم فى كل مكان، وخرج الفتى عن وسعه وعدا طوره، وبطل السمر فى الدور، وعظمت مناظر البيوت، وجفيت الأواصر، وتشبت النشأ بهذه الاباحات فى زيتها الخلاب المتمثل فى النزاع بين القديم والحديث، وأصبحت تسمع ممن يعرف وممن لا يعرف أسماء شكسبير وهو جو ولا مارتين وفولتير ورسو وديمويه، وأضيف كل خاطر ثاقب، وكل بديع منحول، وكل اختراع وكل طريف مليح، الى اليونان والرومان، والى الفرس والهنود، والى العقلية الآرية. والآلهة الاولمبية. وكأن زهير حين قال:

يُؤخَّر فيوضع في كتاب فيُدنَّس . ليوم الحساب أو يُعجل فننقم
قد احتال فيه على سقراط ، وتشطر على أبيقور ، وابتاعه من متاع
هوميروس ، وهو حين قال :

ثلاثٌ كأقواس السَّراءِ ومِسْحَلٍ

قد اخضرَّ من لَسِّ الغَميرِ جَحَافِلُهُ ^(١)

قد حاكه على نير بدوى ، واشتقه من حجارة الدهناء فهو عقلية عربية .
وثقافة صحراوية . كأن الهواء والشمس والسماء والأرض والنجوم
والرياح والسمع والبصر والعقل لم تمر بسكان هذه البادية ؛ وكأن الله
تعالى لم يخلق لعقول البشر متاعا مشاعا ، ولم يجعل بينهم من صور التفكير
مقدارا مشتركا . ولقد عدت بدعة الجديد والقديم على كتاب ابن المقفع
فانتزعت من أيدي التلاميذ لتضع مكانه كتابا جديدا من عمل الأربعين ،
ليس فيه إلا أنه جديد ، وأكثر فصوله كتب على الراجح ، قبل هذا
الأوان في سنوات دراسية مختلفة ، وناله حظ الاستحسان من الأستاذ
الذى كان بالمصادفة فقيها في غير الأدب ، ومدرسا للاملاء لا للإنشاء .
فبقيت هذه المعلقات عند أصحابها حتى نودى فيهم ليضعوا هذا الكتاب ،
فلم يجدوا ذخيرة أفضل ، ولا نمطا من الكلام أجمل من هذه الفصول التى
يعرف مكانها من الكتاب كثير من الذين يعالجون الامتحان العام
للطلاب في كل عام .

ولقد كانت هذه الفترة حقا ثورة في الأدب ، حتى لصح أن يوضع
باسمها كتاب نفيس سماه كاتبه « ثورة في الأدب » ونحن معجبون بهذا
الكتاب وبمؤلفه الذى يعد من أوائل علمائنا البلغاء الممتازين بالرأى

(١) السراء والتبع : شجر تتخذ منه القسي . والمسحل : حمار الوحش . واللس :
الاخذ بمقدم الفم . والغمير : الكلام الأخضر الأطراف . والجحفة : شفة الحمار .

والفكر ، والموصوفين بالتنزه والسؤدد ، وهو فى بعض فصوله يحاول أن يجعل أكثر الفضل فيما كسبه النثر من الحياة والسعة للثقافات الأجنبية بما نقله التراجمة من أفراد الرسائل العلمية من علوم الأجانِب وآدابهم . وترى ما فى هذا القول من المبالغة عند القياس الى ما بسطناه هنا من المناهج وما بيناه من الأسباب . ولسوف تهدأ الثورة ، ويذهب الـ بد ويبقى فى الأرض ما ينفع الناس .

وبعد فإنك لتعجب لهذا العصر ، ألا تراه على كثرة ما تجدد من شقشقة ، وما تسمع فيه من دعوى ، قد أخرج كتابا واحدا منزعا ، أو أصلح فاسدا قديما ، أو أنشأ فنا من الآدب طريفا ، أو استخرج من اللغة مبحثا نافعا — اذا أنت تجاوزت مثلاً حديث عيسى بن هشام للدويلجى ، وصهاريج الأواؤ للبرى — مع انقطاع العذر ، وإشراع السبيل ، وتواصل العلماء ، وتقارب الأمصار ، وانتشار الكتب ، وتيسر التحصيل ، وسعة الوقت ، وكثرة الآلات . ولا تكاد تظفر بكتاب يختلف عما رأيت فى المبسوطات القديمة ولم يكن جمع من حواشيه ونقش من فصولها . وتستطيع أن تجد له فى خزانتك بين آثار السلف وأسفار القدماء موضعا ، أو تنازعك نفسك الى معاودة قراءته فتحس بلذة أو بفضل عائدة . وينبغى أن نضع فى أعناق اخواننا المتخرجين فى الكليات الأجنبية من دار العلوم حقهم من هذه التبعة ، فإنهم يقطعون الصلة التى يجب أن تكون أوثق الصلات بينهم وبين هذه الدار ، فلا يبرونها الا بشىء لا يكاد يفى بحق ولا يقوم بأود ، نعم فإنهم يؤلفون فى المنطق وعلم النفس والفلسفة وفى اللغات السامية ، ولا تحظى منهم العربية ببحث مستطرف ، ولا بتأويل فى الآدب جديد ، وهم يعلمون -- أكثر مما نعلم -- ما تصنعه الجمعيات العلمية لطوائف

المستشرقين من الخدمة النافعة لآثار المشاركة في لغاتهم وفي الضائع
المفقود من آدابهم، وآثار المحدثين والقدماء من شعرائهم . لقد ملئت
جوانب المكاتب بطرائف الكتب في الغرائز وعلوم التريية والفلسفة
والنفس، ولقد سمع الناس المحاضرات في مذهب الإشراف لأفلاطون،
ونظريات « منتسورى » في التريية، ورأى « هربرت سبنسر » في العادة
والخلق، وعلاقة الذاكرة بالعقل الغائب، وإذا لا تخشون أن يقول
أحد إنكم لم تفقهوا في اللغات الأجنبية، ولا أن ينكر عليكم منكر هذه
الحياة الجميلة على ضفاف التاميز، ولا تقولوا إنكم لم تخصصوا لفقته
العربية ولا لآداب اللغات؛ وإنكم توسعون الطريق لغيركم ممن لم يتقف
من اللغات الأجنبية إلا ما يمكن في الجملة من الحديث والفهم؛ لأن
الحياة الأدبية قد أصبحت الآن تتطلب جهودا جديدة، وكفاحا مشتركا،
على نمط من الأساليب العلمية لمناهج البحث الحديث . وإنها لتطمع منكم
في العريض المبسوط من الطاقة الواسعة والكفاية المحموده، وقد قلناها
كلمة خالصة . والله ولينا، ومنه العون ان شاء الله .

